من نجوم الإسلام
(١٦)

الشيخ سليمان الجوسقي

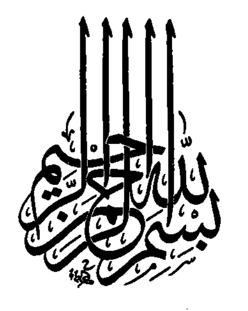
القائد الأعمى البصير

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت



الشيخ سليمان الجوسقي

القائد الأعمى البصير

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٢

تطلب جميع منشوراتنا في المملكة العربية السعودية
من دار البشير بجدة
جدة : ٢١٤٦٣ - ص.ب : ٢٨٩٥ - هاتف : ٦٦٠٨٩٠٤ - ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

كان بالقرب من مدرستنا رجلٌ أعمى، اسمه: الشيخ عيسى...

كنّا نمرّ به ونحن في طريقنا إلى المدرسة، وقد نقف أمام دكانه في ذهابنا وإيابنا، نتوقَّف قليلاً، نتأمله وهو يصنع كراسي الخيزران، بخيوطها المسطّحة التي تتطلب دقّة ومهارة، لتشكّل المربّعات الفارغة، والمربّعات الخيزرانيّة، كأنها رقعة شطرنج، ولكنْ بخانات كثيرة ودقيقة.

والشيخ عيسى كان يحسّ بوجودنا نحن الصغار، فيبتسم لنا، وهو يصغي إلى همسات الإعجاب التي كنّا نتبادلها فيما بيننا..

وكثيراً ما كنّا نراه وهو يمرّر أصابعه على ساعته التي يعلقها بحزامه، فنسأله عن الساعة، فيجيبنا بدقّة وهو يبتسم، فلا نملك أنفسنا من إبداء إعجابنا به.

وكثيراً ما كنّا نراه وهو يمتطي دراجته، ويضع ابنه الصغير أمامه، ثم يطير بدراجته، وابنه يرشده، حتى لا يقع في حفرة، أو يصطدم بأحد.

وكنّا أحياناً، نراه يعلّم بعض الأطفال قراءة القرآن الكريم، ويشدّد على الحفظ الجيدّ، والتجويد في الترتيل، وقد قال لي أبـي: إن الشيخ عيسى يحفظ القرآن، ويجوّده.

كان هذا قبل بضع سنوات، عندما كنت في المرحلة الابتدائية، ثمّ مات الشيخ عيسى ذات يوم، وعرفت هذا وأنا في طريقي إلى مدرستي الإعداديّة.

بكيت لوفاة هذا الشيخ الأعمى، ودخلت المدرسة والدموع في عينيّ، وعندما رآني مدرّس التاريخ، وسألني عن سبب بكائي، قلت له:

ــ مات الشيخ عيسى الضرير.

وأجهشت في البكاء، والتفّ حولي زملائي التلاميذ، يهدّئونني، فيما كان أستاذ التاريخ يوجّه الطلاب إلى الصف، فقد حان وقت الدرس.

وفي الصفّ، أبدى الأستاذ حزنه على الشيخ الكفيف، ثم سألنا:

ــ من يعرف جمع (كفيف)؟

ــ أكْفاء.

فصحّح لنا الأستاذ وقال:

ــ جمع كفيف: أكفّاء. أمّا أكْفاء، فهي جمع الكُفْء، والكُفّء: المماثل. فأنتم أكْفاء في العلم، وفي القوة، أي متماثلون، وكذلك الكُفُؤ.. قال الله تعالى في سورة الإخلاص: ﴿ولم يكن له كفؤاً أحد﴾ أي ليس لله مثيل.

فسأل أحمد:

ــ والأكْفِياء أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ــ الأكفياء: جمع (كفيّ) والكفيُّ: هو القويّ في بابه.. العالم الكفيّ، أي القويُّ في علمه، والمدرّس الكفيّ: أي القويّ في مهنة التدريس.. فقلت، وأنا أمسح دموعي:

ــ يعني.. نستطيع أن نقول: الشيخ عيسى كفيٌّ في صناعة كراسي الخيزران.

قال الأستاذ:

ــ والأكفياء بين الأكفّاء كُثُرٌ ولله الحمد، فقد ظهر في تاريخنا الكثير من الشعراء المبدعين من الأكفّاء، كالشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري، وكالشاعر بشار بن برد.. ظهر شعراء وكتّاب وأدباء عميان، كما ظهر أعمى قائد في العصر الحديث، كان أعجوبة في الدقة والتنظيم، حتى تظنّه بصيراً.

قال أحمد:

ــ يعني.. كان أعمى العينين، بصير الفؤاد؟

ــ فابتسم الأستاذ وقال:

ــ أحسنتَ يا أحمد. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لا تعمى الأبصار، ولكنْ تعمى القلوب التي في الصدور﴾.

ــ ألا تحدّثنا عن ذلك الشيخ الأعمى الذي تفوّق على المبصرين يا أستاذ؟

قال أستاذ التاريخ:

ــ بلى.. أحدّثكم عنه إن أحببتم، لعله يثير الحماسة فيكم، لتكونوا مثله، أو تكونوا خيراً منه.

فهتفْنا بصوت واحد:

ــ إن شاء الله.

فقال الأستاذ:

ـ إذن. . حضّروا أوراقكم وأقلامكم، لكتابة شيء عنه. .

وبعد أن هدأت الضجّة التي أثارتْها حركاتنا لاستخراج الدفاتر والأقلام ركّز، الأستاذ نظارته، ثم قال:

ـ انتبهوا جيداً لما أقول، فهذا الشيخ الأعمى لم يكن كالشيخ عيسى رحمه الله، يصنع الكراسي، ويركب الدراجة، ويفهم في بعض الحِرَف. . شيخنا اليوم نموذج آخر من الرجال الأفذاذ.

سأل فؤاد:

ـ ما اسم هذا الشيخ يا أستاذ؟

ـ اسمه: سليمان الجوسقي. . الشيخ سليمان الجوسقي، شيخ طائفة العميان في مصر، قبل مئتي سنة.

وسألتُ الأستاذ المزيد من التوضيح، لنتعرّف إلى هذه الشخصيّة النادرة، فقال كمن يتابع حديثاً سابقاً:

ـ كان من الأبطال الخالدين يا أبنائي رجلٌ أعمى كان يعيشُ في مِصْرَ، جاء من الريفِ المصريِّ، ودَرَسَ في الأزهرِ الشريفِ، وعُرِفَ بذَكائِه الحادِّ، وبإمكاناتِه الضَّخْمةِ التي تُؤَهِّلُه لقيادة الجماهير، وتُرَشِّحُه ليكونَ زعيماً شعبيّاً قريباً من قلوب النّاس. .

كان الشيخُ سليمانُ الجَوْسَقيُّ قويَّ البُنْيَةِ، وذا مَقْدَرةٍ فَذَّةٍ على إدارةِ الأمورِ الموكولةِ إليه، فقد كان شيخَ العمْيان في القُطْرِ المصريِّ كلِّه، أحصاهم، ورَتَّبَ أمورَهم، ورعى مصالَحهم، وتَفَنَّنَ في تصريفِ شؤونِهم، وحَلِّ مشكلاتِهم، ومناقشةِ قضاياهم حتى أصبَح مَوْضِعَ ثِقَتِهم جميعاً،

يأتَمِرُون بأمرِه ويَنْتَهُون عمّا يَنْهاهم عنه، ولا يَقْطَعون أمراً بدونِ استشارتِه، فكان بحقٍّ أباهم الرحيمَ، وأخاهم الكبيرَ، وسيِّدَهم، وقائدَهم، وخادمَ مصالِحهم في الوقتِ نفسِه.

هل يكفيكم هذا الإجمال؟

ــ لا يا أستاذ.. لا يكفينا.. نريد بعض التفصيلات.

فقال الأستاذ:

ــ كما تحبّون.

وُلِدَ الشيخُ سليمانُ الجَوْسَقيّ في إحدى قرى مِصْرَ، ونَشَأ وتَرَعْرَعَ في قريتِه وفي أحضانِ أسرتِه التي كانت تحنو عليه بسببِ العاهة التي أصيبَ بها، أعني عاهةَ العَمى، وبسببِ مَخايِلِ الذَّكاءِ، التي ظَهَرَتْ عليه في وقتٍ مُبَكِّرٍ، وتَعَلَّمَ كسائرِ أترابِه من أطفالِ الريفِ المصريِّ ــ في (الكُتَّاب) وحَفِظَ قِسْطاً من القرآن الكريمِ، ثم أرسلَه أبوه إلى الجامع الأزهرِ في القاهرةِ ليتَعَلَّمَ فيه، وليكونَ أحدَ مشايخ القُرى، إماماً وخطيباً ومعلِّماً في (كُتّاب).

قال أحمد معلّقاً على كلام الأستاذ:

ــ مساكين هؤلاء العميان.. أهلُهم ومجتمعُهم يفرضون عليهم واقعاً معيَّناً.. شيخ كُتّاب.. شحّاذ.. مغسّل أموات.. وما شابه ذلك من المهن التي تقتل طموح الأذكياء منهم.

فقال الأستاذ معقِّباً:

ــ كلامك هذا صحيح يا أحمد.. ولكنّ بعض الطامحين من العميان كانوا يرفضونه، ويأبىٰ بعضهم إلاَّ أن يكون شيئاً مذكوراً في هذه الحياة،

ومن هؤلاء الأباة: الشيخ سليمان الجوسقي، ذلك الفتى الذي كان طالباً مجدّاً، وتلميذاً لبيباً، ذا شخصية قويّة لفتتْ إليه. الأنظارَ، وجَعَلَتْه مُقَدَّماً بينَ الطلابِ... وكثيراً ما كان الطالبُ سليمانُ يثيرُ بعضَ المسائلِ والمشاكلِ بسببِ أسئلتِه التي تُحرجُ بعضَ مشايخه في عُمْقِها أو طَرافتِها أو غَرابتِها، فيُضْحِكُ زُمَلاءَه الطلابَ حيناً، وتَتَسَبَّبُ في توبيخِه مِنْ قِبَلِ أساتذتِه حيناً آخَرَ، ولكنّها كانت في سائرِ الأحوالِ تَبْعَثُ الخوفَ منه، والاحترامَ له في نفوس الجميع..

سأل فؤاد:

ـ من كان يحكم مصر في ذلك الزمان يا أستاذ؟

أجاب أستاذ التاريخ، وهو يستحثّنا نحن الطلاب على كتابة ما يقول:

كانت مصرُ تَئِنُّ تحتَ وطأةِ المماليكِ الذين كانوا يَحْكُمونها، كما يَحْكُمُ أيُّ غريبٍ طارىء على البلادِ والشعب.. وكانتْ مصرُ تَتْبَعُ شكليّاً للإمبراطورية العثمانيةِ، وكان العثمانيون الذين يَحْكُمون البلادَ العربيّةَ من (استانبولَ) يعتبرونها ولايةً تابعةً لهم، فيعيِّنون لها والياً وقاضياً، ولكنَّ المماليكَ كانوا يتصرَّفون بها وبثَرواتِها ومُقَدَّراتِها، يَظْلِمون أبناء الشعبِ المصريِّ، ويَتَسلَّطون عليه، ويُسَلِّطون أتباعَهم على الفلاحينَ والمساكينِ، يَسْرِقُون أقواتَهم، وينَهَبُون أرزاقَهم، ويصادرون مُمْتَلَكاتِهم، دونَ أن يحسبُوا أيَّ حسابٍ للشعبِ المصريِّ المقهورِ الذي كان يَتَطَّلعُ للخَلاصِ من ظُلْمِهم وحُكْمِهم الجائرِ، ولكنّه لا يستطيعُ أنْ يفعلَ شيئاً، فهو شعبٌ فقيرٌ أعْزلُ، لا يَمْلِكُ من أمرِه شيئاً، وليس لديه القيادةُ التي تسعى إلى تخليصه من حُكْمِ هؤلاء المماليكِ.

قال فؤاد:

وأين علماء الأزهر؟ وأين طلاب الأزهر؟ ألم يكونوا يرون تلك المظالم، ليثوروا عليها؟

أجاب الأستاذ:

ــ بلى.. كانوا يرون، وكانوا يذوقون ما يذوقه الشعب المصريّ، وكان كثير منهم يؤثرون السكوت، وكان بعضهم يثور على هذا الواقع.

وقد فَطِنَ الطالبُ سليمانُ إلى كلٍّ هذا، وحاولَ أنْ يثيرَ هذه القضيةَ أكْثرَ من مرَّةٍ معَ أساتذتِه، ولكنه كان يُؤْمَرُ بالسُّكوتِ، فهي أكبرُ منه ومنهم، ولا ينبغي لطالبٍ فقيرٍ أعمى أنْ يشْغَلَ نفسَه بها، فقد تُسَبِّبُ له الطَّرْدَ مِنَ الجامعِ الأزهرَ، ورُبَّما دَسَّ إليه المماليكُ مَنْ يَضْرِبُه ويُهينُه، بلْ إنَّهم لن يَتَوَرَّعُوا عن قتلِه إذا عَرَفُوا أنه قد يُزْعِجُهم في قابِلِ الأيام.. ولكنَّ الفتى سليمانَ أَسَرَّ في نفسِه أمراً، وراح يُغَذّيه ويُنمِّيه لَدَى زُمَلائِه الطلابِ الفقراءِ مِنَ العُمْيان.

سأل أحمد:

ــ ماذا أسرَّ الجوسقيّ في نفسه أستاذ؟

ولكنّ الأستاذ تابع كلامه، كأنه لم ينتبه للسؤال، فقال:

ــ كان سليمانُ يُدْرِكُ أنَّ الطلابَ العُمْيانَ غالباً ما يكونون من الفقراءِ البائسينَ وأنَّهم في حاجةٍ إلى مَنْ يُخفِّفُ عنهم بُؤسَهم وتَعاستَهم، وإلى مَنْ يَرْعَى شُؤونَهم، فبادرَ الطالبُ سليمانُ إلى ذلك، فتَقَرَّبَ إليهم، وتَحبَّبَ إلى قلوبِهم، وصار يَبُثُّ فيهم رُوْحَ التمرُّدِ على الواقعِ المَهينِ الذي يعيشونه،

فوَثِقُوا به، وألقَوْا إليه بزِمامِ أمورِهم، حتى صار مَرْجِعَم الذي يَرْجِعون إليه في حلِّ مُشْكلاتِهم، يُخبِّئونَ عندَه نُقودَهم، ويستشيرونه فيما يشترون ويقرؤون ويحْفَظُون، وكانوا يجِدُون لديه الحُلُولَ المناسبةَ لكلِّ مُشْكلةٍ، حتى صار شيخَهم، وما عادوا ينادونه إلاَّ باسم الشيخِ سليمان.

قلت:

ـ فعل هذا وهو طالب، فماذا فعل بعد التخرّج؟

ـ عندَما أنهى سليمانُ الجَوْسَقيُّ تعليمَه في الجامع الأزهرِ، وانتقلَ إلى الحياةِ العمليةِ، قامَ بتنظيمِ أمورِ العُمْيانِ في سائرِ المُدُنِ والقُرى المصريّةِ، يُرَتِّبُ لهم حياتَهم ومُفْرداتِ عيشِهم، يوزِّعُهم على الأحياءِ والقُرى القريبةِ والنائيةِ، ويُعَلِّمُههم كيفَ يتعاملون معَ الناسِ، حتى الشِّحاذةُ رَتَّبَها لهم، وكان هؤلاءِ العُمْيانُ يُطِيعونه فيما يأمرُهم به، وفيما يَنْهاهم عنه، وكانوا يُعْطُونه ما يزيدُ عن حاجتِهم مِنْ مالٍ، وكان هو يَفْرِضُ على الشَّحَّاذينَ منهم ضريبةً مُعَيَّنَةً، فكان يأخُذُ نسبةً مُحدَّدةً ممّا يَشْحَذونه مِنَ الناسِ وهمْ راضُون، يُزَوِّجُ هذا، ويشتري أو يستأجرُ بيتاً لذاك، ويَرْعَى مصالحَ الجميعِ، حتى صار شيخَ العُميانِ في القُطْرِ المصريِّ كلِّه.

وسأل أحمد:

ـ ألم تنتبه السلطات إلى نشاطه وتنظيمه أستاذ؟

أجاب الأستاذ:

ـ بلى.. انتبَه الجواسيسُ لهذا الشيخِ الأعمى الذي صار له نفوذٌ كبير على العُمْيانِ، حتى شَكَّلَ منهم جيشاً جَرَّاراً في طُوْلِ البلادِ وعَرْضِها، وجَمَعَ الأموالَ الطائلةَ ممّا يأخُذُه مِنَ العُمْيان، وما كان يُتاجِرُ به، وبنى العماراتِ

وأنشأَ عدداً من المطاحنِ والمعاجنِ والمخابزِ، حتى صار كِبارُ المشايخِ والوُجَهاءِ يستدينون منه، وكان يُقْرِضُهم لتكونَ له دالَّةٌ عليهم، وليُذِلَّهم ويُحْرِجَهم أمامَ أبناءِ الشعبِ، عندَما يريدُ. وكثيراً ما كان هؤلاء يَضِيْقُون به، ويَنْفَسُون عليه مالَهُ ونُفوذَه، ويَكْرَهُون كِبْرِياءَه، فهُمْ لم يَعْهَدُوا في أيِّ أعمى أنْ يكونَ سيِّداً ثريّاً مطاعاً، وهم المُبْصِرون، يَنْظُرون فلا يَرَوْنَ حَوْلَهم إلاَّ المنافقين وأصحابَ المَصالحِ.. كان هذا يثيرُ نَقْمَتَهم عليه، فلا يَتَحَفَّظُون في الجَهْرِ بما يَنْقِمُون عليه، ولَكنَّ الشيخَ سليمانَ كان لهم بالمرْصادِ، يُلقِّنُهم دروساً في العِزَّةِ والكرامةِ، ويأبـى أنْ يَذِلَّ لهؤلاءِ الذين كانوا يُثِيرونَ حَفيْظَةَ المَماليكِ عليه، فيَشْكُوْنَه إلى أُمَرائِهم، يُحذِّرونهم مِنْ تعاظِم شَأنَ هذا الأعمى الذي يَنْوي الشرَّ بهم جميعاً، ويَكِيدُ لهم، ويَسْخَرُ منهم، ويَزْعُمُ أنّهم مماليكُ عَبِيدٌ وليسُوا أحراراً، وكثيراً ما كان الحُمْقُ يَرْكَبُ بعضَ هؤلاءِ المماليكِ، فيَتَعَرَّضون له ولأتباعِه العُميان ويُؤْذُونهم، وهو صابرٌ على إيذائِهم، يَتَحَيَّنُ الفُرْصَةَ التي يُذِلُّهم فيها، ويُعَبِّـىءُ أتْباعَه بالحِقْدِ عليهم، والتأهُّبِ لليومِ الذي يَثْأرون فيه لكرامتِهم المُهْدَرة، ولأموالهم المُنْتَهَبَة..

وسأل أحمد من جديد:

ــ كيف؟

وقال مصطفى:

ــ إذا كان المبصرون غير قادرين على محاربة الظالمين، فكيف يستطيع العميان ذلك؟

كان الأستاذ يَذْرَعُ الصفَّ ذهاباً وإياباً، وهو يتفحص وجوهَنا، لعله كان يريد أن يعرف أثر كلامه فينا، ثم وقف أمامنا وجهاً لوجه، ثمّ قال:

ـ كلامُك مرفوض يا مصطفى. . كلُّ إنسان قادرٌ على الجهاد بطريقته الخاصّة. . الرجل، والمرأة، والشابّ، والشيخ، والصَّغير والكبير، والأعمى والبصير.

وأزاح الأستاذ نظارته عن عينيه، وزوىٰ بين حاجبيه، ثم قال بحزم:

ـ كونوا واثقين، يا أبنائي، أننا قادرون على تحرير شعبنا من الظالمين، إذا أردنا ذلك. .

والتفتَ الأستاذ إلى زميلنا أحمد، وقال:

ـ كان الشيخُ سليمانُ يُعِدُّ العُدَّةَ، ويسعَى لتطهيرِ مصرَ مِنْ هؤلاءِ المماليكِ الدُّخلاء، الذين نَشَرُوا في البلاد ألوانَ الفسادِ، فكانوا وأتباعَهم يَسْطُون على الأعراضِ، ويَنْهَبُون الأموالَ، ويُذِلُّون الفلاحينَ والبائسينَ، ويَقْهَرُون الرجالَ، حتى لا يفكِّرَ واحدٌمنهم، بالعملِ على تخليصِ البلادِ والعبادِ منهم، والوُلاةُ الأتراكُ يَنْظُرون فلا يُحرِّكون ساكناً ضِدَّ هؤلاءِ المماليكِ، وكان همُّ الشيخِ وهاجِسُه تكوينَ جيشٍ من الشعبِ المصريِّ يَنْقَضُّ عليهم في يومٍ من الأيام، إذ لا أَمَلَ في تحريرِ الوطنِ من الغرباءِ إلاَّ بجيشٍ مِنْ أبناءِ الوطنِ نفسِه، ولكنّه كان يجِدُ العَقَباتِ تَقِفُ في وجهِ طُموحِه هذا.

وسكت الأستاذ لحظة، فسألته:

ـ هل استطاع الشيخ الجوسقيّ تكوين جيش من الشعب، كما كان يتمنَّى، ويخطّط لتحقيق أمنيته؟

قال الأستاذ:

ـ ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركُه　　　تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُّفُنُ

ـ كيف؟

أجاب الأستاذ:

ـ قبل أن يخطوَ الشيخ سليمان خطوتَه التالية في تشكيل جيش الشعب من عامة المصريِّين، بعد أن شكّل نواته الأولى من العميان، جاء نابليون بونابرت على رأس الحملة الفرنسيّة الصليبيّة ليغزو مصر.. جاء بأسطوله وجيشه وعلمائه ومسرحه وخموره وومومساته، جاء بأسلحته الحديثة الفتّاكة.. ببنادقه ومدافعه، وغزا مصر، وتمكّنَ من دَحْر جيش المماليك الذي فرّ أمام جيش نابليون السفّاح المغرور.

قال مصطفى:

ـ عفواً أستاذ.. هل كان الشيخ سليمان متزوّجاً؟

أجاب الأستاذ وهو يبتسم:

ـ طبعاً كان متزوجاً، وكان له ولد اسمه داود. وكانت أمُّ داود تغذّي طموحه، وتمنّيه بأن يكون سلطاناً على مصر، فهي ما كانت تجد من يستحقّ أن يكون سلطاناً على مصر، إلاَّ زوجها الشيخ سليمان، الرجل الذّكيّ الألمعي الشديد البأس، القادر على قهر الأعداء، أعدائه أعداء الشعب.. كانت كثيراً ما تقول له:

ـ لا تحزنْ يا أبا داود، وإيّاك واليأس، فما اعتمد مجاهدٌ على الله، ووثق به الشعب، إلاَّ انتصر. فالنصر من الله، وللنصر رجاله، وأنت المنصور بالله.

فهتف مصطفى:

ـ هكذا فلتكن النساء.

فقال أحمد في حياء:

ــ اللهم ارزقنا الزوجات المجاهدات الصالحات.

فضجّ الصفّ بالضحك، ولكنّ الأستاذ ما لبث أن اتّخذ هيأةً جادّة، فقلت:

ــ ألا تتابع قصة هذا الأعمى العبقريّ يا أستاذ؟

قال الأستاذ وهو ينظر في ساعة يده:

ــ بلى يا صادق.. لا بدّ أن أروي لكم قصّته في اختصار، قبل أن يقرع الجرس.

قلنا: غزا نابليون مصر، وادّعى أنه جاء بالاتفاق مع السلطان العثمانيّ، ليحرّر مصر وشعبها من ظلم المماليك، ويعيدها إلى حظيرة الدولة العثمانيّة، وأنه يحبّ الإسلام والمسلمين، ويكره النّصارى والنّصرانيّة.

فسأل أحمد:

ــ وهل صدّقه المصريّون؟

أجاب الأستاذ:

ــ لا.. لم يصدّقوه، بل قاوموه، ودافعوا عن أرضهم، وعن دينهم، وعن حرّيتهم، وعن أعراضهم، وعن عاداتهم وتقاليدهم.. قاومه علماء الأزهر وطلاب الأزهر.. قاومه الفلاحون.. قاومه عامّة الشعب.

ــ والمماليك؟

ــ المماليك انهزموا.. وبعضهم تعامل مع نابليون، وصاروا أجراء وجلّادين لدى الفرنسيين، بدلاً من أن يعبّئوا الشعب للدفاع عن وطنه.

ونفخ الأستاذ شُواظاً من نار ثم تابع يقول:

وراح نابليونُ هو الآخَرُ يعملُ بعقليّةِ المُستَعْمِرِ، يُخَرِّبُ ويُدَمِّرُ ويَقْتُل ويُحْرِقُ المَحاصيلَ الزراعيّةَ، ويَنْشُرُ الفسادَ الأخلاقيَّ.. وانطلقَ جنودُه يَعْبَثُون بأرضِ مصر، يُذِلّون شَعْبَها، ويَعْتَدُون على الأعراضِ، ويَدُوسون المُقَدَّساتِ، ويَنْتَهِكون الحُرُماتِ، فدَخلَتْ خيولُهم إلى صَحْنِ الجامعِ الأزهر، واعتَدَوْا على علمائِه وعلى طلاب العلم فيه، وقَتَلُوا المصلّينَ، وسَخِرُوا من دينِهم ومن عاداتِهم وتَقاليدِهم وعِبَاداتِهم، حتى إنّهم جعلُوا الجامعَ الأزهرَ وعدداً من مساجدِ القاهرةِ والمُدُنِ والقُرى مَرابِطَ لخيولِهم، في استهتارٍ واستهانةٍ بهذا الشعبِ الذي زَعَمُوا أنه شعبٌ لا يعرفُ القتالَ، ولا كيفَ يدافعُ عن وطنِه وعن عقيدتِه وعن عِرْضِه، مَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ أسلافِهم مِنَ الأتراك والمماليكِ الذين كانوا يَزْعُمون أيضاً أنَّ الشعبَ المصريَّ شعبٌ مسالمٌ مستسلمٌ لا يَقْوَى على ردِّ العُدْوانِ عليه، مُتَواكِلٌ، يَدَعُ أَمْرَ الدفاعِ عن أرضِه إلى غيرِه.. إلى المماليكِ الذين وَلّوا الأدْبارَ، بلْ إنَّ الفرنسيينَ هؤلاءِ كانوا يَنْهَبُون الكُتُبَ والمَخْطُوطاتِ والآثارَ، ويَقْطَعُون رؤوسَ خمسةٍ أو أكثَر من علماء الأزهر ومن طلابه يومياً في القاهرةِ وحدَها، ويَطُوفون بها في شوارِعها إرهاباً للناسِ وتخويفاً...

أحمد: والشيخ الجوسقي؟ أين كان الشيخ سليمان يا أستاذ؟

الأستاذ: كان الشيخُ سليمانُ يراقب الأمورَ عن كَثَبٍ، فيَغْلي الدَّمُ في عُروقِه للحال المهينة التي وَصَلَ إليها وطنُه وأبناء شعبِه..

كان يجتمعُ في دارِه في القاهرة بزعماءِ المحافظاتِ والوُجَهاءِ والمشايخِ، فيَتَدارسُ معهم الأوضاعَ، ويَسْتشيرُهم فيما يجبُ أن يفعلوه لِصدِّ

المستعمرينَ الفرنسيينَ الجُدُدِ، وكان يستمعُ إلى كلِّ واحدٍ من هؤلاء طويلاً، ثم يعطي أوامرَه ويَطْلُبُ منهم أنْ يَتَقَيَّدوا بتنفيذِها بدِقَّةٍ، وكانتْ خُطَّتُه تتلخَّصُ في أنْ يَستعدَّ شبابُ المُدُنِ والقُرى المصريَّةِ، وكلٌّ في مكانِه، ولا يُسمَحُ لأهلِ أيِّ بلدٍ في التصدِّي لهؤلاءِ الغزاةِ ما داموا عُزَّلاً مِنَ السلاح. . كان يقولُ لهم:

ــ قولوا لأبناءِ الشعبِ أنْ يبْقُوا في أماكِنهم، وأنْ يَتَحَصَّنُوا ويَتَسَلَّحوا بكلِّ ما يقعُ تحتَ أيديهم من أنواعِ السلاحِ، من الحجارةِ والعِصيِّ والسكاكين والفؤوس وما إلى ذلك من أنواع السلاح.

وعندما كان بعضُ المتحمِّسين وأصحابِ النظرِ القاصرِ يطالبونه بالثورةِ الفَوْريَّةِ والقتالِ معَ المماليكِ ضِدَّ الفرنسيين، كان يجيبُهم بحَزْمٍ:

ــ لا. . لا يجوزُ أنْ نُفرِّطَ بشبابِنا هكذا. . عليكم بالصبرِ إذا أردْتُم أنْ تنجحوا في طَرْدِ الغُزاةِ. . أمّا المماليكُ فدَعوهم يقاتلوا وَحْدَهم ليبُوءوا هم بالفَشَلِ، أمّا إذا قاتَلْنا معهم فستكونُ النتيجةُ أنْ نبقى على ما نحنُ فيه من الذِلَّةِ والمَهانةِ مُنْذ قُرُونٍ. . سنبقى شعباً ضعيفاً يشتري جيشَه من أسواقِ العبيدِ. . ثُمَّ إن مِصْرَ صارَتْ مُلْكاً لهؤلاء المماليكِ العبيدِ مُنْذُ سَلّمْناهم زِمامَ الأمورِ عندَنا، وطَلَبْنا منهم أنْ يدافعوا عن أرضِنا، وتَخلّيْنا لهم عن شَرَفِ الجهادِ. . ولو كان أولئك المماليكُ يَحْسُبون لنا أيَّ حسابٍ، لَوَزَّعُوا علينا السلاحَ، ودَرَّبونا على استعمالِه، ولكّنهم مستعمرون كالفرنسيين، يريدوننا عبيداً لهم. .

فؤاد: إذن. . كان الشيخ الجوسقي يفهم في القضايا العسكرية.

الأستاذ: لقد كان الشيخ سليمانُ الجَوْسَقيّ يُؤمِنُ بالكفاحِ المُسَلَّحِ

الواعي طريقاً وأسلوباً وحيداً لتحرير أرضِ مصرْ مِنْ مُغْتَصِبيها، ولا يدافعُ عن الوطنِ إلاَّ أبناؤُه، فأبناءُ الشعبِ همْ وَقُودُ الثوراتِ، ولا بُدَّ لنجاحِ الثورةِ من قيادةٍ مُدَبِّرةٍ حكيمةٍ تُوَفِّرُ لعناصره كلَّ أسبابِ القوةِ من السلاحِ والتدريبِ والتخطيطِ والمالِ، وكان يقرأ قَوْلَ اللَّهِ تعالى: ﴿وأَعِدُّوا لهمْ ما استطعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ منْ رباطِ الخيلِ، تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللَّهِ وعَدُوَّكم، وآخَرين مِنْ دونِهم لا تَعْلَمُونهم، اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فيُبادِرُ إلى تَعْبِئَةِ الشعبِ تَعْبِئَةً رُوحِيَّةً، فيذكرُّهم بتعاليمِ الإسلام الداعيةِ إلى الحريةِ والعِزَّةِ والكرامةِ، ولا تَتَأَتَّى هذه إلاَّ بالجهادِ في سبيلِ الله، والجهادُ يكونُ باليدِ وباللسانِ وبالقلْبِ، والجهادُ يكونُ بالدفاعِ عن الشعبِ والأرضِ والعِرْضِ، وكان يُذَكِّرُهمْ بأمجادِ أسلافِهم وأجدادِهم وعُظَمائِهم..

وكما كان يعبّئهم نفسياً ومعنويّاً، كان يشرح لهم عوامل القوّة الواردة في قوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة...﴾.

وهكذا حتى كان لِتَحْريضِه أبناءَ القاهرةِ على الثورةِ، أنْ ثارَ الشعبُ في القاهرةِ ضِدَّ الفرنسيينَ، بَعْدَ هزيمةِ المماليكِ، وكان يُمْكِنُ لهذه الثورةِ أنْ تَنْجَحَ لو أنَّ سائرَ المُدُنِ والقُرى المصريَّة ثارَتْ معَ القاهرةِ، ولكنَّها لم تَفْعَلْ، وسارعَ الفرنسيون إلى البَطْشِ بأبناءِ القاهرةِ، فأحرقُوا المَحلاَّت التّجاريَّةَ بَعْدَ أنْ نَهَبُوها، وهَدَّمُوا البيوتَ على رؤوس ساكنيها، وانتهكُوا حُرْمَةَ المساجدِ، ودَمَّرُوا عدداً منها، في وَحْشِيَّةٍ أَلْهَبتِ المَشاعرَ، وجَعَلَتِ الشعب يَسْتَعِدُّ للثأر.

صادق: وجيشُه من العميان؟

الأستاذ: كان الشيخُ سليمانُ يستخدم جيشَه السِّرِّيَّ مِنَ العُمْيَانِ في إيصال تَعْلِيماتِه وأوامرِه إلى الوُجَهاءِ والمَشايخِ وزعماءِ المُدُنِ والقرى،

يَحُثُّهم على الاستعدادِ للمعركةِ الفاصلةِ معَ المستعمرين الفرنسيين، كما كان يُكَلِّفُ بعضَهُم باغتيالِ الجنودِ الفرنسيين، وكان يقومُ هؤلاء بأداءِ واجباتِهم في سِرِّيَّةٍ وذَكاءٍ، استطاعُوا أنْ يَقْتُلُوا عدداً كبيراً من جنودِ الاستعمارِ، فقد كانوا يَلْتَقِطون السُّكَارى منهم وهمْ خارجون من الحَاناتِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ الليلِ، حتى ضَجَّ قادةُ الجيشِ الفرنسيِّ، واستطاعَ نابليونُ مَعْرِفَةَ بعضِ الرؤوسِ التي كانتْ تُحرِّضُ على الثورةِ ضِدَّه، كما عَرَفَ أنَّ الشيخَ سليمانَ الجَوْسَقي هو الرأسُ المُدَبِّرُ، وهو قائدُ جيشِ العُمْيانِ الذين يقومون بعمليّاتِ القتلِ والاغتيالِ لجنودِه، فثارتْ ثائِرَتُه، وأمَرَ بإلقاءِ القبضِ على المشايخِ الذين ظَنَّ أنَّهم زعماءُ الشعبِ. وكان مِنْ بينِ هؤلاء هذا الشيخُ الأعمى الأُعْجُوبةُ: سليمانُ الجوسقي.

وسكت الأستاذ لحظة ليلتقط أنفساه، فجاءته أصوات التلاميذ تحثّه على متابعة الحديث عن هذا الشيخ الأعجوبة، فتابع قائلاً:

وعندَما مَثَلَ الشيخُ سليمانُ بينَ يَدَيْ نابليونَ، أُعْجِبَ به وبدَهائِه وبذكائِه الخارِق، فطَمِعَ به، وراح يُناورُه ويُحاورُه ويَعْرِضُ عليه عُرُوضاً مُغْرِيَةً، لعلّه يستطيعُ كَسْبَه إلى جانبِه، فشيخٌ أعمى مِثْلُه يَتَمكَّنُ مِنْ تشكيلِ جيشٍ ضخمٍ من العُمْيانِ في سائرِ البلادِ المصريّةِ، جديرٌ أنْ يكونَ كسباً كبيراً له فيما لوِ استطاعَ إغراءَه بالمَنْصِبِ في سائرِ البلادِ المصريّة، ولكنْ خابَ فَأْلُ نابليونَ في استمالةِ هذا الأعمى الذي كان صامداً في وجهِه كالطَّوْدِ الأَشمِّ، لا يُبالي بترغيبٍ أو ترهيبٍ، بَعْدَ أنْ خَسِرَ المِئاتِ من أنصارِه العُمْيانِ الذين قَتَلَهم نابليونُ، وبَعْدَ أنْ فَقَدَ أكثرَ أتباعِه والمتعاونينَ معه الذين قَتَلَ بعضَهم نابليونُ، وبَعْدَ أنْ فَقَدَ أكثرَ أتباعِه والمتعاونينَ معه الذين قَتَلَ بعضَهم نابليونُ وشَرَّدَ وطاردَ بعضاً آخَرَ.

ــ ثمّ ماذا يا أستاذ؟

ــ أرجوك أن تتابع الحديث، فالوقت ضاق.

ابتسم الأستاذ ابتسامة عريضة، ثم تَجهَّمَ وجهه، وتابع قائلاً:

كان الشيخُ سليمانُ يستمعُ إلى عُروضِ نابليونَ بونابرتَ في شموخٍ واستعلاءٍ، وكان يُعَلِّقُ على كلِّ عَرْضٍ ساخراً ومُسْتَهْزِئاً بالعَرْضِ وصاحبِه، حتى نَفِدَ صَبْرُ نابليونَ الذي أَحَسَّ بالهزيمةِ أمامَ هذا الأعمى، وهو الذي قَهَرَ جيوشَ أوروبا، ومُلُوكَها، ولكنّه تماسَكَ قليلاً وأرادَ أنْ يداعبَ أحلامَ الشيخ سليمانَ، فعَرَضَ عليه أنْ يكونَ سُلْطاناً على مصْرِ كلِّها، وتظاهَرَ الشيخُ الأعمى بالقَبول.

ومَدَّ الشيخُ سليمانُ يدَه إلى نابليُونَ، وابتسامةٌ ساخرةٌ تَرْتَسِمُ على شَفَتَيْهِ، حتى إذا ما أَمْسَكَ بيدِ نابليونَ بيدِه اليُمْنى، لَطَمَهُ بيدِه اليُسْرى لَطْمَةً صَبَّ فيها كُلَّ ما في نفسِه من آلام وأحزانٍ وثاراتٍ، فما كان من القائدِ المُنْهَزِمِ، قاهِرِ الملوكِ والجيوشِ، إلاَّ أنْ يَأْمُرَ في نَزَقٍ وصُراخٍ شبيهٍ بالعَوِيلِ، بقتلِ هذا الشيخ الأعمى الأُعجوبةِ، وأمَرَ بإلقاءِ جُثَّتِه معَ جُثَثِ أصحابِه في نهرِ النِّيْلِ، لتكونَ طعاماً للأسماك.

فتعالت هتافاتنا:

الله أكبر.. الله أكبر..

فيما تابع الأستاذ يقول، وهو يسمع قرع الجرس، إيذاناً بانتهاء الحصّة:

ــ وهكذا ــ يا أبنائي ــ انتهَتْ حياةُ الشيخِ سليمانَ الجَوْسَقِي في الجنة مع الأنبياء والشهداءِ والصالحين، فقد كانتَ حياةً حافلةً بالمَجْدِ والاجتهادِ

والعملِ والجهادِ في سبيلِ الله ثمّ الوطنِ والشعبِ، وصَدَقَ رسولُ اللّهِ صلّى الله عليهِ وسلَّم إذ يقول: «مَنْ قُتِلَ دُوْنَ مالِه فهو شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُوْنَ دَمِه فهو شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُوْنَ دينِه فهو شهيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُوْنَ أهلِه فهو شهيد». والذي يقولُ: «سَيِّدُ الشهداءِ حَمْزَةُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، ورجلٌ قامَ إلى إمامٍ (أي حاكمٍ) جائرٍ فأمَرَه ونَهاه فقَتَله».

والمطلوبُ منكم ـ يا أبنائي ـ أنْ تكونوا كأجدادِكم جِدّاً وعملاً وجهاداً، فأرضُكم تتَعَرَّضُ للغَزْوِ مِنْ قِبَلِ اليهودِ الطامعين، وشَعْبُكم يَسْتَصْرِخُكم لتكونوا أمثالَ خالدٍ وسعدٍ والمُثَنَّى والمُعَنَّى وسليمانَ الحلبـيِّ والكواكبـيِّ وهنانو وسليمانَ الجَوْسقي، لتكونوا أبطالاً مَيامين، تَذُوْدُوْنَ عن أرضِكم، وتدافعون عن عقيدتِكم وعروبتِكم، وتَصُدُّون هَجَماتِ البرابرةِ الجُدُدِ، الذين تَدْفَعُهم مطامعُهم وأحقادُهم إلى غزوِ وطنِكم.

* * *

عدتُ إلى البيت وكلماتُ الأستاذ ملء مسامعي، فأين الشيخ عيسى الضرير، صانع كراسي الخيزران، وراكب الدّرّاجة، وحافظ القرآن، ومعلّم الصّبيان، من هذا الشيخ الأعجوبة الذي تصدَّى للظالمين من المماليك والمصريّين والعثمانيّين، كما تصدَّى للغزاة الفرنسيين الذين جاؤوا مستعمرين، وتصدَّى لقائدهم المغرور بنفسه وبجيشه: نابليون.

استلقيت على سريري فَوْرَ وصولي، فقد كانت نفسي عازفة عن الكلام والطعام، ولا تريد أن تنصرف عن حديث الأستاذ الذي لخَّص لنا قصّة الشيخ الأعمى البصير..

وفيما كنتُ أسترجعُ حديثَ الأستاذ، وصُوَرَ البطولة لذلك الشيخ،

رأيتُ، وأنا بين النائم واليقظان، شيخاً كفيفاً يتقدّم مني في شموخ تقوده أختي صادقة، والسعادة تطفح من عينيها الضاحكتين هَبَبْتُ من سريري وأنا أصيح في فرح:

ـ أهلاً بك يا سيِّدي الشيخ الجليل.

الشيخ: السلام عليك يا بنيّ.

صادق: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أيّها الشيخ القائد.

الشيخ: من أين لك هذا يا بنيّ؟

صادق: عَرَفْتُك من شموخك يا سيّدي الشيخ سليمان الجوسقي.

صادقة: ولكنّك لم تحدّثني عن جدّي الشيخ سليمان يا صادق.

صادق: معذرةً يا صادقة، فأنا لم أسمع بسيِّدنا الشيخ إلاّ اليوم.

الشيخ: من حدّثك عني يا صادق؟

صادق: أستاذي.. أستاذ التاريخ، وهو أستاذ مثقّف، يقرأ كثيراً، وهو محبٌّ لك يا سيِّدي، ومعجب بشخصك الجليل.

صادقة: وأنت يا صادق؟

صادق: بعد أن سمعت قصة الشيخ، صرتُ أشدَّ إعجاباً به، وأعظمَ إكباراً له من أستاذي.

الشيخ: لا تبالغْ في الحبّ والكُرْه يا بنيّ!

صادقة: إذا أحبَّ صادق، رفع من يحبّه إلى السماوات العُلا، وإذا كره أو أبغض، نزل بمن يكره أو يبغض إلى أسفل السافلين، إلى قاع الحضيض.

الشيخ: لا يا بنيّ. . كن متوازناً في حبّك وبغضك. . أحببْ حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغضْ بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبَك يوماً ما. . هكذا علّمنا أستاذ الحياة محمد.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: هذا ينطبق على الأحياء. . أنا أغالي في غير الذين أراهم وأعايشهم من الأحياء. . أغالي في حبّ أجدادي العظماء من أمثالكم يا سيِّدي، وأغالي في كره الكافرين والمنافقين قديماً وحديثاً، لأنهم آذوا رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: وآذوا أصحابه وأتباعه، وما زالوا يؤذونهم، ويمكرون بهم، لعنة الله على الكافرين المشركين الظالمين.

الشيخ: اللَّهم آمين.

صادق: والآن يا سيِّدي الشيخ الجليل.

الشيخ (مقاطعاً): لا تكثرْ من استخدام الألقاب كالأعاجم، فالعرب والمسلمون لا يعرفون الألقاب، لأنها مدعاة إلى التفاخر والتعاظم من جهة، والذّلّ والمَسْكنة من جهة أخرى.

صادق: ولكننا الآن نستخدمها أكثر بكثير مما يستخدمها غيرنا. . نقول لهذا ولذاك: صاحب الفخامة، والسيادة، والسعادة، والعناية، وصاحب الفضيلة، وما إلى هذا من ألقاب اعتدنا عليها أولاً، ثم إننا إذا لم نخاطب بها بعض الناس، غضبوا وآذَوْا. . فالمعذرة يا صاحب الفضيلة، لأنني أخشى أن اعتاد على هجرها، فيصيبني مكروه.

الشيخ: أنت وما تريد.. ولكنّ العرب والمسلمين والإسلام ونبيّ الإسلام وأصحابه وأتباعه، ويمقتون هذا، وينفرون منه. عُد الآن إلى ما تريد أن تقول.

صادق: كنت أنوي أن أقول:

عرفتُ قصّة حياتك، يا سيّدي، في اختصار، ولديّ بعض الأسئلة حول ما عايشت من أزمات ورجال وقضايا، فهل تسمح لي؟

الشيخ: حبّاً وكرامة يا صادق.. سلْ ما بدا لك.

صادق: عاصرت ــ يا سيِّدي ــ دولة المماليك، فماذا عن دولتهم؟

الشيخ: امتدّتْ دولة المماليك من حدود ليبيا إلى الفرات، ومن شمالي حلب وشرقيّها إلى جنوب الجزيرة العربية، وشملت مصر وبلاد الشام.

صادق: وما رأيك في المماليك يا سيّدي؟

الشيخ: المماليك ظاهرة عجيبة في تاريخنا، وهم مسلمون وليسوا أجانب أو غرباء، جاهدوا الفرنجة والتتار والإسماعيلية، وانتصروا عليهم، وقدّموا الكثير لهذه الأمة في مختلف مناهي الحياة، ومع ذلك، كانت لهم أخطاؤهم الكثيرة والكبيرة، خاصة في مراحل حكمهم الأخيرة، وعلى أيدي بعض كبارهم، كالمجرم مراد بك وسواه.

صادق: إذن.. لم يكونوا أجانب وغرباء كما قال لنا أستاذ التاريخ؟

الشيخ: لا يستطيع أحد أن يزعم ذلك.. وإلاّ ما كانوا قاتلوا الصليبيين، والتتار، وحموا مصر وبلاد الشام من عدوانهم الهمجيّ.. ثمّ..

مَنْ مِنَ المسلمين لا يتغنَّى ببطولات قطز وبيبرس ومآثرهما، وبنجم الدين أيوب، وبغيرهم من الأمراء الأبطال الصالحين؟.. ولكنْ.. كما قلت لك، ارتكبوا أخطاء من الصعب عليّ وعلى أمثالي اغتفارها لهم، ولذلك خاصمتهم، وعملتُ على الإطاحة بهم، لأنهم ظلمة، وقساة.

صادقة: مثل ماذا يا جدّي الشهيد؟

الشيخ: مثلاً.. كان الناس جميعاً، ومنهم المماليك، يحترمون المشايخ، ويقدّرونهم، وفجأة، انقلب المماليك على المشايخ، وصاروا يذلّونهم ويضطهدونهم.

صادقة: عفواً يا جدّي.. أريد مثالاً محدَّداً.

الشيخ: خذي هذا المثل.

في عام ١١٩٠هـ (١٧٧٦م) قبض المماليك على الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عبد الوهاب العفيفي، ووضعوا الحديد في عنقه وقدميه. وأذّلوه أمام الناس في صورة منكرة، وحبسه الأمير المملوك في حاصل (أيْ حَبْس) أرباب الجرائم من الفلاحين.

صادق: وسكت المشايخ؟

الشيخ: بل احتجّوا على هذا الظلم، وكان الشيخ على الصعيديّ العدويّ والشيخ الجدّاوي على رأس المحتجّين، وقال الشيخ العدويّ للأمير المملوك:

ـ ما هذه الأفعال التي تقومون بها؟

وما هذه الجرأة على المشايخ؟

فقام الأمير المملوك على قدميه، وصرخ فيه:

ـ والله أكسر رأسك.

فصرخ عليه الشيخ العدويّ، وسبَّه، وقال له:

ـ لعنك الله، ولعن الياسرجي (أي تاجر الرقيق والعبيد) الذي جاء بك، ولعن من اشتراك ومن جعلك أميراً.

صادق: الله أكبر.. هكذا يجب أن يكون المشايخ وعلماء الأمة.

الشيخ: ثمّ توسّط الحاضرون من الأمراء بين الأمير المملوك وبين المشايخ، وصاروا يسكّنون من حدّة الأمير وحدّة المشايخ، ثم أحضروا الشيخ عبد الباقي من الحبس، فأخذه المشايخ، وخرجوا به، وهم يسبّون الأمير، والأمير يسمعهم ولا يجيبهم على سبابهم.

صادقة: لو كانت مواقف المشايخ هكذا، ما تجرّأ عليهم حاكم مهما بلغ من الطغيان.

الشيخ: وهناك مثال آخر.

صادق: ما هو يا سيِّدي؟

الشيخ: في ذلك الوقت أيضاً، تجرّأ الأمير المملوك يوسف بك، وحبس الشيخ عبد الرحمن العريشي مفتي الأحناف، وتوسّط له الشيخ محمد أبو الأنوار السادات، وأخرجه من الحبس، وتلافىٰ القضيَّة، ثم حصل ما حصل من الفتنة نتيجة هذا التصرّف الشائن، وما ترتّب عليه من قَفْل الجامع الأزهر، وقَتْل الأنفس.

صادقة: أعوذ بالله.. كيف تجرّؤوا على هذا الفعل المخزي؟

الشيخ: حصل.

صادقة: وأغلقوا الجامع الأزهر؟

الشيخ: وقتلوا وحبسوا مشايخ الأزهر أيضاً.

صادق: إنهم مجانين.

الشيخ: ثم تتابعت الحوادث، وكانت ثورة الشعب على مظالم المماليك.. ذهبوا إلى الجامع الأزهر، واشتكوا إلى المشايخ، فترك المشايخ دروسهم، وأغلقوا الجامع، وخرجوا على رأس الجماهير، وطالبوا المماليك برفع الظلم عن الناس، حتى كانت آخر حادثة وقعتْ بينهم في سنة ١٢٠٩هـ (١٧٩٤م) أي قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات، حين جاء أهل قرية تابعة لمدينة بُلْبَيْس، يشكون الأمير المملوك محمد بك الألفي وأتباعه الذين ظلموهم، وحمَّلوهم من الإتاوات (الضرائب) ما لا قدرة لهم على دفعه، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوي، فاغتاظ الشيخ حين سمع شكواهم، فحضر إلى الأزهر، وجمع المشايخ، وقفلوا أبواب الجامع، وأمروا الناس بإغلاق الحوانيت والأسواق، ثم ركبوا في اليوم الثاني، ومعهم خَلْقٌ كثير من العامّة، وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات، فأرسل المماليك إليهم أميراً يسألهم عن مطالبهم، فقال المشايخ:

ـ نريد العدل، ورفع الظلم والجَوْر، وإبطال الإتاوات والمكوسات (أي الضرائب) التي ابتدعتموها وأحدثتموها.

صادق: فماذا أجابهم الأمير؟

الشيخ: قال لهم الأمير المملوك:

ـ سوف أبلّغ الأمراء بمطالبكم.

ثم انصرف، ولم يَعُدْ إليهم بجواب، وانفضّ المجلس.

صادقة: وانتهى الأمر بهذه البساطة يا جدّي؟

الشيخ: لا.. لم ينتهِ بهذه البساطة، بل ركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمع أهل الأطراف من العامّة والرعيّة..، وباتوا في الجامع.

وفي اليوم الثالث، اجتمع الأمراء، وأرسلوا إلى المشايخ، فحضر إليهم الشيخ السادات، والسيد عمر مكرم ـ نقيب الأشراف ـ والشيخ الشرقاوي، والشيخ البكري، والشيخ محمد الأمير، وغيرهم، ومنعوا العامّة من السير خلفهم، ودار الكلام، واحتدّ النقاش بين المشايخ والمماليك، وأقام المشايخ الحجّة على المماليك، فأقرّ المماليك بذنوبهم وأخطائهم، وأعلنوا توبتهم، وأنهم سوف يلتزمون بما شرطه العلماء عليهم، وانعقد الصُّلحُ بينهم، على أن يرفعوا عن الناس المظالم المُحْدَثة، والكشوفيّات والتفاريد والمكوس، وأن يكفّوا أتباعهم عن سلب أموال الناس، وأن يسيروا في الناس سيرة حسنة.

صادقة: هذا رائع.. ولكنْ.. هل كتبوا عهداً أو وثيقة بذلك؟

الشيخ: طبعاً كتبوا.. فقد كان القاضي حاضراً المجلس، فكتب وثيقة المعاهدة هذه، لتكون حجّة على الماليك، ووقّع الأمراء المماليك عليها، ورجع المشايخ، وحول كلّ شيخ منهم خلقٌ عظيم من العامّة، وهم يهتفون: «حسب ما رسم ساداتنا العلماء، بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطّالة من مملكة الديار المصريّة».

صادق: يا سلام.. ما أروع انتصار الحق، واندحار الظُّلم.

الشيخ: وفرح الناس كما تفرحان الآن وأنتما تسمعان ما أقصُّه عليكم، وظنّوا أن المماليك سيلتزمون بما اشترطه المشايخ عليهم، وفتحت الأسواق أبوابها، وسكنت الأحوال نحو شهر، ثمّ عاد المماليك إلى ما كانوا عليه من الظلم وزيادة.

صادقة: أعوذ بالله.. لا يفون بالعقود والمواثيق؟ هل أولئك مسلمون!

الشيخ: أجلْ يا ابنتي مسلمون، ولكنّهم طواغيت، نقضوا ما واثقوا المشايخ عليه بعد شهر واحد فقط من تحرير الوثيقة. ولعل اضطراب الأحوال هذه، هي التي شجّعت الفرنسيين على غزو البلاد.

صادق: وما أدراهم بها؟

الشيخ: عن طريق جواسيسهم الذين كانوا يعملون في مصر كتجّار ومبشّرين ومستشرقين.. فقد عرف هؤلاء أيَّ غضب وكراهية يكنّهما العلماء والعامّة لأولئك المماليك الذين لا يَرْعَوْنَ في الله إلاَّ ولا ذمّة ولا عهداً، ولا يقيمون للشرع حرمة، ولا للمشايخ هَيْبَة ولا كرامة..

كان هذا معلوماً وواضحاً لأولئك الجواسيس، ولا بدَّ أنَّهم كانوا يُطْلعون سادتهم في فرنسا على هذا الذي يجري على أرض مصر.

صادقة: أذكر أنّي قرأت مسرحية شعرية لأمير الشعراء أحمد شوقي رحمه الله، بعنوان: (علي بك الكبير أو دولة المماليك) وصف حياتهم فقال: «دنياهمو الطِّيْبُ والبَخُوْر».

ووصف طعامهم بأنه:

«طعامُ شاهٍ، طعامُ عُرْسٍ   لم يَرْوِ أمثالَه الرُّوَاةُ

ما القصرُ، ما الفرشُ، ما الأواني   ما الأكلُ، ما الشُّربُ، ما الطُّهاةُ؟
هــذا هــو الملــك ملــك مصــرٍ   وهكـــذا الحـــظُّ الهبـــاتُ»

الشيخ: هذا وصفٌ سليم لحياة المماليك.. ثمّ ماذا يا ابنتي؟

صادقة: كان فيما قاله شوقي عن دولة المماليك، مما أحفظ معناه دون مَبْناه:

«قد تغدو الرقيقة ملكة مصر».

«الوالد والولد يقتتلان، وقد يغدر أحدهما بالآخر، من أجل المنصب»

«والقصور قطعة من جنان الخُلْد، فيها المصابيح البللوريّة، والخشب المصنوع بالصَّنْدَل والمسك».

«منهم الأمير المتألِّه، والشعب المسكين الذي يبارك ظالمه، فيخاطبه بقوله: أنتَ أطعمتَنا، أنت سقَيْتَنا..

«والجياع بالآلاف».

«وجنود المماليك يسطون على الأموال والأعراض والأرواح والدّماء».

«يقطع الجنديّ أذني امرأة ليأخذ الحلق منهما».

«وضعوا الضرائب حتى على الحمير والأوتاد واللُّجم والبرادع، مع أنها لا تعدو أن تكون من حصير أو لَبَد ممزّق».

كما وصف فساد الأمراء والآغوات وإفسادهم وغرورهم..

الشيخ: وعندما جاءت مراكب الإنكليز التي كانت تتعقّب المراكب الفرنسيّة، وسألوا عنها في الإسكندرية، ووصل الخبر إلى أمراء المماليك، لم يأبهوا لهذا الخبر، ولم يكترثوا به، اعتماداً على قوّتهم الجوفاء، وظنّهم

الأخرق، بأنه إذا جاء جميع الإفرنج، فسوف يهزمونهم، ويدوسونهم بخيولهم.

صادقة: قبل الخوض في الحملة الفرنسية على مصر، أحبّ أن أسأل عن جيشك الذي شكّلْتَه من..

الشيخ: العميان... لا بأس يا ابنتي.. شكّلتُ جيشاً من العميان.. جمعتُ فيه آلافاً من عميان مصر، وأنشأتُ منهم كتلة مترابطة متماسكة في كيان مستقلّ، أساسُه فقدان البصر.. نظّمْتُهم تنظيماً دقيقاً.. أخذتُ منهم فائض أموالهم، وثمّرْتُها لهم في بناء العمارات والمطاحن والمعاجن والمخابز، وأنفقت منها على أيتامهم وأراملهم والعَجَزة منهم.

صادق: هذا ليس جيشاً يا سيّدي.. هذا ما ندعوه اليوم: جمعية للمكفوفين.. نقابة مثلاً.. أمّا أن يكونوا جيشاً.. فلا..

ابتسم الشيخ سليمان ابتسامة عريضة أشرق لها وجهه الصارم ثمّ قال:

ـ ولكنكم تستعجلون.. أنت بالذات يا صادق، تستعجل..

شعرتُ بخجل شديد، وأنقذتني أختي صادقة بقولها، وهي مُقْبلةٌ على الشيخ:

ـ هاتِ يا جدّي المجاهد، هاتِ حدّثنا عن جيشك العجيب هذا.

ازدادت ابتسامة الشيخ اتّساعاً ثم قال:

ـ لقد كوّنتُ من أولئك العميان فِرَقاً لإذاعة الإشاعات، ونشر الأخبار التي نريد، ونقل أخبار الأقاليم إليّ ثم إلى الأقاليم الأخرى، وكان لي منهم مجموعات من المراسلين.

صادقة: يعني كوّنتَ منهم فريقاً إعلامياً، وشبكة من المراسلين، كما نقول في أيامنا هذه يا جدّي.

الشيخ: وعن طريقهم، تمكّنتْ صِلاتي بزعماء الأقاليم، وتعزّزت الثقة بيننا.

صادق: ما الهدف من تكوين هذا الجيش من العميان يا سيّدي؟

الشيخ: أردت أن يكون هؤلاء نواة لجيش من صميم الشعب المصري، يرى واجبَه في الدفاع عن مصر، عن شعبها وأرضها.

صادق: وجيش المماليك؟

الشيخ: جيشهم ليس الجيش الذي نريد.. والمماليك ليسوا الحكام الصالحين لحكم مصر وشعبها المسلم.

صادق: لذلك عملتَ ـ يا سيّدي ـ على تشكيل جيش من الشعب المصري، يطيح بحكم المماليك؟

الشيخ: أجلْ.

صادقة: لماذا لم تقاتل وتدعو إلى قتال الفرنسيين الغزاة إلى جانب المماليك يا جدّي؟

الشيخ: إنْ نحن فعلنا ذلك، بقينا على الحال التي نحن عليها منذ قرون.. أمة ضعيفة، تشتري جيشها من أسواق العبيد.

صادقة: هل كنت تنتظر سقوط المماليك، لتقاوم الفرنسيين يا جدّي؟

الشيخ: نعم.. خُطّتنا، حتى قبل مجيء الغزاة الفرنسيين، هي التسلّح والتأهب لمواجهة المماليك، وإخضاعهم لحكم الشعب.. وعندما جاء

الفرنسيون، طلبتُ من أتباعي ومن زعماء الأقاليم وأحياء القاهرة، أن يتسلحوا ويتأهبوا في بيوتهم، في انتظار اللحظة الحاسمة.

صادق: وتركتَ المماليك يدافعون عن مصر؟

الشيخ: لو كان المماليك يريدون الدفاع عن البلاد، لوزّعوا السلاح على الشعب، ودرّبوه على استعماله.

صادقة: لعلّه لم يكن لديهم سلاح!

الشيخ: بل في مخازن الأمير المملوك مراد وحدها، ما يكفي ويزيد لو كان يريد.

صادقة: هل كانوا يخافون أن يمتلك الشعب المصريّ السلاح؟

الشيخ: كان المماليك ومعهم العثمانيون، يظنّون أنّ الشعب المصريّ شعب غير مقاتل، مع أنهم شاهدوا الفلاحين المصريين يقاتلون الغزاة الفرنسيين بالعصي والنَّبابِيتْ والفؤوس والسكاكين والحجارة.. والشعب الذي يقاتل بهذا السلاح البدائي، قادرٌ على مواجهة الموت بالبنادق والمدافع..

وسكت الشيخ لحظات، ثم تابع يقول:

ـ لا يمكن الاتكال على المماليك في الدفاع عن أرضنا وديننا وشرفنا.. المماليك كانوا مشغولين بتهريب كنوزهم وإخفائها، ويا ليتهم دافعوا عن مصر، وحرصوا على أرضها وشعبها، كما كانوا يحرصون على تهريب أموالهم وجواهرهم التي سرقوها من الشعب المصريّ المسكين.

صادقة: كأنك تقول: إنّ المماليك كلَّهم سيّئون.

الشيخ: التعميم خطأ وظلم.. ليسوا كلُّهم سيّئين.. فقد كان منهم ناس طيّبون، وصالحون مصلحون، ولكنّهم قلّة.. فهناك أيوب بك الدفتردار، والسيدة نفيسة زوجة علي بك الكبير.. هذه السيدة كانت تنفق على الأرامل والأيتام بسخاء. السواد الأعظم منهم سيّئون، خاصّة في زمننا هذا الذي أحدّثكم عنه، كشاهد عيان، وإن كان الشاهد أعمى. (يضحك).

صادق: هل ننتقل، يا سيّدي الشيخ المجاهد، إلى الحديث عن الغزاة الفرنسيين؟

الشيخ: لا بأس.. ننتقل.. سلوا ما تشاؤون.

صادق: نعرف أنّ قائد الحملة الفرنسية هو الجنرال نابليون بونابرت، فهل تعطينا رأيك بهذا القائد يا سيّدي؟

الشيخ: نابليون، هذا الضابط السفّاح المغرور، هو جزّار القاهرة، ومدّمرها، والساعي لإفساد أخلاق أهلها، طوال مدّة إقامته فيها..

ونابليون هو الذي أمر بتجريد المسلمين من السلاح، وارتكب الجرائم والمجازر، وهو عدوّ المشايخ وطلبة العلم، وهو الذي أمر بدخول خيله إلى الأزهر، وذبح الناس فيه، وأمر بتمزيق أجساد طلبة العلم، وبتمزيق المصاحف والكتب، وأمر بأن يكون الجامع الأزهر مربطاً أو مرابط لخيول الفرنسيين.. وهو الذي غزا سورية، وتحطّمت كبرياؤه تحت أسوار عكا، وهو الذي كان يتمسح تحت أقدام عشيقته جوزفين التي أذلته، وخانته مع عشّاقها الآخرين.. هل تريدون مزيداً عن هذا الطاغية الذي استباح الإسكندرية والقاهرة وسواهما؟

صادقة: لا.. بل نريد معرفة كلّ شيء عن غزوه واحتلاله مصر يا جدّي.

الشيخ: نزل بجيشه إلى الإسكندرية في السابعَ عشرَ من المحرَّم عام ١٢١٣ هو (الأول من تموز ١٧٩٨م) ومعه مئات المستشرقين والعلماء في كلّ علم وفنّ، واحتلّ القاهرة في العاشر من صفر ١٢١٣هـ (٢٤/ ٧/ ١٧٩٨م).

صادقة: هذا يعني أنه جاء للاستيلاء على مصر، والاستيطان فيها، وإلاَّ ما جاء بغير الجيش المقاتل.. كما فعلوا في احتلال الجزائر فيما بعد.

الشيخ: هذا صحيح.. فلم تكن مهمة نابليون عسكريّة حربيّة فقط، بل كانت حضارية. ولذلك جاء بعلمائه ومطبعته ومسرحه وممثّليه ومومساته، وجاء برسّامين وموسيقيين ونقّاشين ومثّالين.. جاء بمئة وستة وأربعين عضواً فعّالاً، ما بين عالم ومهندس وأديب وفنّان، وجهّزهم بمجموعة كاملة من الآلات الطبيعية والرياضة التي يحتاجونها.

صادق: يعني.. جاء بنوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون.

الشيخ: حمل جيشه على ثلاث مئة سفينة، يحرسها أسطول مؤلف من خمس وخمسين سفينة حربية.

صادق: كم كان عدد جيشه؟

الشيخ: كانوا ستة وثلاثين ألف مقاتل، فيهم صفوة قواده الذين انتصر بهم نابليون على إيطاليا.

صادقة: أحبّ أن أكتب شيئاً عن العلماء الذين جاؤوا في الحملة يا جدّي..

الشيخ: أولاً: اصطحب معه مطبعة عربية، وأخرى فرنسية، وثالثة يونانية. ثانياً: اصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابغها في الرياضيات والهندسة والطب والجغرافيا والفلك والأدب والكيمياء، والاقتصاد

السياسي، والآثار، والمعادن، وطبقات الأرض، والحيوان، والنبات، وفنّ العمارة، وهندسة الرّيّ والقناطر والجسور والميكانيك، وطائفة من المصوّرين وسواهم.

صادقة: كم كان عدد سكان مصر يا جدّي؟

الشيخ: ثلاثة ملايين نسمة.

صادقة: كم كان عدد جيش المماليك؟

الشيخ: عشرة آلاف مقاتل.

صادقة: هل تعطينا فكرة عن فئات الشعب يا جدّي؟

الشيخ: هناك فئة المشايخ، وكان لهم تأثير كبير على أفراد الشعب، ولهم الزعامة الأدبية والسياسية.

وهناك فئة التجّار والمُلّاك، وكانوا مصريين ومماليك وعثمانيّين، وكان المماليك يهابونهم.

وهناك فئة الزُّرّاع والصُّنّاع، وهم من الفقراء والجهلة، وكانوا يشكّلون سواد الشعب المصري.

صادقة: هل تعامل أحد من المصريين مع الفرنسيين يا جدّي؟

الشيخ تعامل معه الأرمن والأروام والمالطيّون وبعض القبط، واليهود ونصارى الشام المقيمون في مصر، وسِفْلَةُ المغاربة المقيمين في مصر أيضاً. وقد ظهرت بلاياهم طوال فترة الحملة، وخاصة أثناء ثورة القاهرة، الأمر الذي كاد يفتّ في عضد المجاهدين، ويبعثر خطاهم، ويشتّت شملهم. ولن ينسى الشعب المصري المعلم يعقوب الذي شكّل جيشاً من سفلة الأقباط،

وكذلك المجرم برطلمين.. هؤلاء غذّاهم المستشرقون بالأحقاد الدفينة، ودرّبهم على المكر والدهاء، وعلى المداهنة والنّفاق في معاشرة المسلمين، وحشدوا معهم اليهود أيضاً.

صادقة: أعوذ بالله.. عداء اليهود لا مثيل له، وأحقادهم بلا حدود.

صادق: ما رأيك، يا سيّدي، في الحملة الفرنسيّة؟

الشيخ: إنها حلقة في سلسلة الحروب الصليبية التي بدأت سنة ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) واستمرت حتى يومنا هذا، أي سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م).. سبعة قرون كاملة.. وهي من صنع المبشّرين المشعوذين الذين كانوا طليعة للغزاة الفرنسيين.

صادق: نعم يا سيّدي.. نحن نصغي إليك.

الشيخ: استمرت الحروب الصليبية قرنين كاملين، انتهت بالإخفاق واليأس من انتصار السلاح على المسلمين سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م) ولكنّ الرُّهبان والقساوسة والمبشّرين الذين انتشروا في البلاد الإسلاميّة، كانوا في حرب حقيقية مع الإسلام والمسلمين، ولكنّها حرب خفيّة.. خفيت على المسلمين، ولم تظهر لهم إلاّ بنزول الجيش الفرنسي في الإسكندرية بقيادة نابليون، ثم اجتياحها البلاد المصريّة كلّها.

صادق: لماذا طمعوا بنا يا سيّدي؟

الشيخ: لأنّهم عرفوا أيَّ غفلة كنّا فيها.. فقد كان قناصلهم وتجّارهم ومبشّروهم الذين ظهروا كمستشرقين، يُطْلعونهم على كلّ صغيرة وكبيرة، كما قلت لكم قبل قليل.. زيّنوا لهم غزونا، وأطمعوهم بخيراتنا، وأضرموا نيران الأحقاد في نفوسهم علينا، فغزونا.

صادقة: المستشرقون؟

الشيخ: إي نعمْ المستشرقون.. إنهم جنود الصّليبيّة الحاقدة.. وهبوا أنفسهم لإذلال المسلمين، والثأر لأجدادهم الصليبيين.. جاؤونا باسم العلم، وعاشوا بين أظهرنا، وأقاموا صداقات مع بعض مثقّفينا، وهم رُسُلُ الصَّليبيَّة الحديثة، التي آلت على نفسها أن تحاربنا إلى أن تكسر شوكتنا.

صادق: يا ليتك تعلم ــ يا سيّدي ــ ما يفعلون بنا الآن.. الروس في أفغانستان وأذربيجان والشيشان، والبوسنة والهرسك، والأرمن في أذربيجان، والصرب والإنكليز والكروات والفرنسيون في البوسنة، والأمريكان والإنكليز واليهود في بلاد العرب والمسلمين كافّة.. وهم جميعاً مع اليهود ضدّنا.

الشيخ: وماذ تنتظرون؟ فحديثك يبشّر بخير.. بصحوة.. بيقظة..

صادق: كيف والكوارث تنزل بنا على أيديهم في كلّ زمان ومكان؟

الشيخ: قلت لك.. لأنكم استيقظتم وعرفتم عدوَّكم وما يرمي إليه.. عرفتم مكائدهم وأساليبهم الخبيثة.. عرفتم مكائد المستشرقين والمبشّرين طلائع الغزاة من الفرنجة.. لقد فتحتم عيونكم على مخازيهم، وفتحتم عقولكم وقلوبك على الواقع المرّ لأمّتكم، وعلى ما يريده الصليبيّون منكم. عرفتم أنهم يريدون اختراق دار الإسلام.

صادقة: لقد اخترقوها ومزّقوها كلَّ ممزَّق، يا جدّي.. استعمروا شعوبها، وأفسدوا الضمائر، وسرقوا الخيرات والكنوز.

صادق: كانوا، وما زالوا في هجمتهم علينا، كالكلاب المسعورة.

الشيخ: هذا لأنّ دينهم الجديد، أو لأنّ سياستهم التي لا تنفصل عن دينهم وموروثاتهم التاريخية، قائمة على الأحقاد، وما ينشأ عنها من جرائم الغدر والسلب والنهب، وطبائع الخسّة والنّذالة.

صادقة: هل من دليل، يا جدّي، على أنّ المستشرقين كانوا طلائع المستعمرين الغزاة؟

الشيخ: عندما حطّ نابليون في الإسكندرية، كان معه عشرات من المستشرقين الصّغار والكبار، وكلّهم كانوا في خدمة الغزاة.. أم أنكم تنسون ما أقوله لكم؟ أم أنّ هذا لا يكفي دليلاً على صحة ما أقول؟

صادقة: هل نعود إلى نابليون يا جدي؟

الشيخ: وهل تركْنا ذلك السفّاح حتى نعود إليه؟

استباح الإسكندرية، ودمّر فيها ما دمّر، ثم اجتاح المدن والقرى المصريّة، حتى دخل القاهرة، وهو يحرق ويدمّر ويقتل، والناس في خوف وهلع وذعر مما يفعل هو وجنوده.. أهالي الإسكندريّة قاوموا بما عندهم من سلاح، وقاومت الأبراج مقاومة عنيفة، ولكنها لم تدم طويلاً، واقتحم الجنود البيوت، ودافع الأهالي، وكاد نابليون يموت في زقاق ضيّق من أزقّة الإسكندرية، عندما أطلق رجل وامرأة عليه الرصاص من إحدى النوافذ، فجاء الجنود وقتلوهما.

صادق: إذن.. كانت مقاومة؟

الشيخ: وقُتل من الفرنسيين حوالي ثلاث مئة جندي وضابط، وقُتل وجُرح من أهالي الإسكندرية حوالي ثماني مئة.. الشعب المصري في مصر والإسكندرية ودمنهور ورشيد ودمياط والمنصورة، وفي سائر القرى والمدن،

كان أرقى نفساً، وأنبل قصداً من حكامه المماليك الظالمين الذين فرّوا من المعركة، واهتمّوا بكنوزهم وجواهرهم.

صادقة: أذكر أنّ نابليون وزّع منشوراً على الشعب المصري.

الشيخ: نعمْ.. وزّع منشوراً حاول فيه التقرّب من الشعب المصري، أعلن فيه أنه أوصى جنوده باحترام الشعائر الدينية، وعدم التعرّض للنساء، وعدم نهب الأموال والبيوت، وأنه يحبّ الإسلام والمسلمين، وأنه جاء ليخلّص الشعب المصري من حكم المماليك الظالمين، وأنه سيعيد مصر إلى الدولة العثمانية، وأنه جاء بالاتفاق مع السلطان العثماني، وأنه قتل النصارى والقسس في إيطاليا لأنهم يحقدون على الإسلام والمسلمين، ويحرّضون النصارى عليهم.. إلى غير ذلك من الكلام المنمّق، أراد به أن يضحك علينا، وقد بدأه هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا إله إلاَّ الله، لا ولد له، ولا شريك له في ملكه..» هذا المنشور كتبه له جواسيسه المستشرقون الذين صحبوه.. ثم إنه شرع يراوغ العامّة، باستمالة المشايخ.

صادقة: هل صدّق الشعب هذه الحيلة؟

الشيخ: لا لم يصدّقها، فما كان من نابليون إلاَّ أن يُطْلق لجنوده العنان، ليطفىء نيران الأحقاد التي تشوي قلبه البربريّ.

صادقة: عامّة الشعب المصريّ لم يصدّق نابليون، بينما كثير من المثقفين في هذه البلاد العربية الإسلامية، يعدّون عصر النهضة عندنا، بدأ يوم دخل نابليون إلى مصر.

الشيخ: لأنهم حمقى ومغفَّلون وجاهلون.

صادق: أو خونة مارقون.

الشيخ: على الرغم من وجود صوت للمصريين في (الديوان) الذي أنشأه نابليون لحكم مصر، لم يذعن الشعب لنابليون، ولم يطمئن إليه، ولم ينخدع في حقيقة أهداف الحملة، بل إن هذه الحملة الغاشمة أثارت روح التحدّي في الشعب، فتحمَّلَ الأهوال منها، وقام بسلسلة من المقاومات ضدّ الجيش الفرنسي الغازي، شملت أنحاء القطر المصري، حتى كأنّ ثورة عامّة قد اندلعت ضدّ الغزاة، من الإسكندرية حتى أسوان.

صادق: هذا يدلّ على مبلغ الوعي والحيويّة الكامنة في هذا الشعب الأصيل الذي لم يخدعه المنشور النابليوني الذي خدع بعض المثقفين عندنا.

الشيخ: وقد جاءت جرائم الفرنسيين لتكون أكبر برهان على أنهم جاؤوا محتلّين، وليسوا محرّرين، وأنهم يريدون إفساد مصر، وضرب القيم الإسلامية فيها.

صادق: لا شكّ أنّ الحملة كانت اعتداء صارخاً من دولة أجنبية على شعب أعزل آمن.

الشيخ: ولكنّ هذا الشعب الأعزل أقضّ مضاجع الفرنسيين، فلم يستقرّ لهم حكم، طوال السنوات التي احتلّوا فيها مصر، فلم يترك الشعب وسيلة من وسائل المقاومة إلاّ استخدمها. وقد رفع الشعب شعار: «مقاومة الاضطهاد والاحتلال، هي أقدس واجبات الشعب».

صادقة: هذا هو شعار الثورة الفرنسية ذاتها يا جدّي.

الشيخ: قال يريدنا أن نصدّق أنهم ركبوا البحار، وعرّضوا حياتهم للأخطار، وخاضوا غمار المعارك ضدّ المماليك، من أجل الدفاع عنا.. قال.. كانوا يوزّعون المنشورات، وكنّا نهزأ بها، ونحرقها..

يوزّعون المنشورات، وفي الوقت نفسه، يستنزفون ثروات مصر بالضرائب والإتاوات، حتى نسي الناس مظالم المماليك، عندما قاسوها بمظالم الفرنسيين.

صادقة: سمعنا وقرأنا أنهم سرقوا كلَّ نفيس من الكتب.

الشيخ: هذا صحيح. وكانت مصر من أغنى بلاد الدنيا في الكتب.

صادقة: الكتب النفيسة التي سرقوها، يا جدّي، تملأ مكتبات فرنسا وأديرتها وكنائسها اليوم.

صادق: وكان همُّهم سرقة كتب (علوم الحضارة) وكتب التاريخ، وكتب الأدب.

الشيخ: سرقوها من مكتبات المساجد والمدارس، ومن بيوت المشايخ وطلاب العلم، ومن بيوت الأمراء والمماليك.

وسكت الشيخ سليمان الجوسقي لحظات التقط فيها أنفاسه، ثم قال:

ـ والأنكى من ذلك، أن نابليون كان يأمر بقتل خمسة أو ستة من طلبة العلم في كل يوم.. يأمر بقطع رؤوسهم، والطواف بها في شوارع القاهرة لإرهاب الناس وإخضاعهم لإمبراطور فرنسا.. كان نابليون يردّد على مسامع ضباطه وجنوده، ما جاء في تقرير المسيو تاليران وزير خارجية فرنسا آنئذ، من أنّ مصر كانت فيما مضى ولاية من ولايات الإمبراطورية الرُّومانية، ويجب الآن أن تكون ولاية تابعة للجمهورية الفرنسية. وهذا لن يتحقق لفرنسا إلاَّ بقتل علمائها وطلبة العلم فيها، وإلاَّ بسرقة كتبها ونفائسها.

صادق: إذن.. كان هذا نهجاً لنابليون.

صادقة: وماذا عن (الديوان) الذي ذكرْتَه قبل قليل يا جدّي؟

الشيخ: إنه مهزلة أعدّها مسبقاً، وقبل أن تطأ أقدام الفرنسيين أرض مصر. أعدّه المستشرقون المرافقون للحملة، وذكروا في أمر إنشائه أسماء مشايخ معيَّنين، يتكوّن منهم الديوان..

صادقة: كيف؟

الشيخ: اختار المستشرقون الأسماء اختياراً مدروساً من مشايخ البلاد وأعيانها الذين امتازوا بمراكزهم العلمية، وبكفايتهم في سياسة الأمور، وبطريقة استقبالهم للفرنسيين.

صادقة: يعني أنّ نابليون يريد وضع السلطة في أيدي فئة ذات هيبة عند الناس.

الشيخ: على أن يكونوا جميعاً ممن يمكن أن يستجيبوا بشكل ما، استجابة تدين بالولاء للفرنسيين.

صادق: يعني حكومة ذات سلطة في الظاهر فقط، وليست في الحقيقة، سلطة لها استقلالها وكلمتها ومواقفها في سياسة الناس والبلاد.

الشيخ: أجلْ يا صادق.. يريدونها لترويض الشعب وخداعه، ولإحباط المقاومة الشعبية.

صادقة: لم أفهم ـ يا جدّي ـ معنى طريقة استقبالهم للفرنسيين.

الشيخ: يعني أن يحسنوا استقبال الفرنسيين. الغزاة.. يعني أن يكونوا من الضِّعاف الذين يجاملون من انتهكوا حرمة الوطن.

صادقة: يريدون تدجين مشايخ الأزهر وأعيان مصر؟

الشيخ: خسئوا.. فضعاف النفوس قلّة نادرة بين المشايخ، والذين ضعفوا، تمرّد عليهم طلابهم، ولم يسكتوا على ضعفهم.

صادق: قال لنا مدرّس التاريخ: إنك كنتَ تنتقد المشايخ يا سيّدي.

الشيخ: أنا كنت وما زلت وسأبقى أنتقد المشايخ الذين يقاتلون بالبركة.. بغير سلاح، وبغير نظام، وبغير قائد.. الإسلام غير هذا، وتاريخ المسلمين يؤكّد أنّ المسلمين كانوا يخوضون المعارك وهم مسلّحون ومدرَّبون على القتال، وهم على تعبية ونظام، ولهم قائد مطاع.. وليس في تاريخ المسلمين من يقود جيشه بمسبحته الكرهمان.. النبـيّ الكريم.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

كان قائداً، وكان فارساً يتقدم الصفوف بسيفه، ويعيّن المواقع، ويرسم الخطط، ولا نجاح لمعركة بغير هذا، ولا خلاص لنا إلاَّ في العودة إلى الجندية.

ألم يقرأ أولئك المشايخ سيرة الرسول القائد؟

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

صادق: ألم يقرؤوا تاريخ الإسلام والمسلمين؟

الشيخ: بلى.. قرؤوه.. وهذا من أعجب العجب.. يتلون كتاب الله، ويدرسون سيرة نبيّه، ويحفظون أحاديثه، ويقرؤون تاريخ أصحابه، وتاريخ أبطال الإسلام الفاتحين، ثم لا يستخلصون منها ما يفيدهم في واقعهم، ويخلّصهم ممّا هم فيه من بؤس وتعاسة وتخلُّف، كأنما طُمستْ بصائرهم، فلا يفقهون من ذلك شيئاً.

وسكت الشيخ هنيهات، مسح فيها شفتيه وعينيه بمنديل أبيض نظيف كان في يده، ثم قال:

ـ تصوّروا أن يأتي بغض المشايخ ليودعوا عندي أنا الأعمى الضعيف القليل، أموالهم ونفائسهم.

هل يليق بشيوخ العلم أن يكون همُّهم جَمْعَ المال والتكالُبَ عليه؟

صادقة: هل التقيتَ نابليون يا سيّدي؟ هل تحدّثتَ معه؟

الشيخ: أجلْ يا صادقة.. التقيتُه وتحدَّثتُ معه، وكان لي معه شأن أيّ شأن.

صادقة: أرجو أن تحدّثنا عن لقائك معه يا جدّي.

الشيخ: كنت أراقب نابليون عن كثب، وكانت أخباره تأتيني أولاً فأولاً.. وكت قرأت المنشور الأول الذي أذاعه على الناس، وزعم فيه أنه يعبد الله سبحانه أكثر من المماليك، وأنه لا يؤمن بعقيدة التثليث (الأب والابن وروح القدس) وأنه يحترم نبيّنا محمداً.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

الشيخ: وزعم نابليون أن هذه هي عقيدة الفرنسيين جميعاً، وليست عقيدته وحده.. ثم إنه احتفل مع المسلمين بالمولد النبويّ الشريف، وأقام احتفالات المولد على حساب الحملة الفرنسية، وجاء بعساكره وطبوله وأبواقه، حتى ملؤوا ساحة الاحتفال، وعلّقوا الحبال والقناديل، وضربوا الطبول طوال الليل والنهار، ولعبوا في الميدان، ولبس نابليون الزيّ الشرقيّ، كما يلبس المشايخ والصوفيّة في الاحتفالات الدينية..

صادقة: الخبيث الماكر.

الشيخ: وشارك في احتفالات مولد الإمام الحسين بن علي، رضي الله عنهما، بعد الاحتفال بالمولد النبويّ الشريف، مع أنّ الشعب المصريّ كان يرفض الاحتفال بهاتين المناسبتين وبسواهما، احتجاجاً على الاحتلال الفرنسي لبلاده.

صادق: هذا ما نسمّيه اليوم: مقاومة سلبيّة.

الشيخ: وقد فطن نابليون لهذه المقاومة السلبيّة، وحاول التغلّب عليها، حتى لا تستشري نيرانها في البلاد، فتكون الشرارة للمقاومة الإيجابية ـ حسب تعبيركم ـ عندما ينادي منادي الجهاد.

صادق: رائع أنت يا شعب مصر.

الشيخ: ومن عادة المصريّين، الاحتفال بعيد وفاء النيل، ولكنّ الشعب أبى مشاركة نابليون في هذا الاحتفال، ولم يخرج المصريون للتنزّه ليلاً في المراكب كعادتهم كلّ مرّة، ولكنْ ـ ويا للأسف ـ خرج معه، مع نابليون، النصارى الشّوام والقبط والأروام والإفرنج الذين كانوا يقيمون في مصر.. خرج هؤلاء مع نسائهم، كما خرج قليل من الناس البطّالين.

صادق: أوباش.

الشيخ: أستطيع أن أقول لكم: إن نابليون فشل فشلاً ذريعاً في التحبّب إلى المصريّين، وفي التقرّب منهم، وقد تمثّل هذا الفشل في المقاومة الشعبيّة التي عمّت أكثر المدن المصريّة، وخاصّة في القاهرة التي كان يقودها أبطال من مشايخ الأزهر الذين وقفوا بحزم أمام أحلام نابليون الجنرال السّفيه المغرور..

وقد أظهر الشعب المصريّ الذي كان مبهوراً بأسلحة بونابرت وجنوده، أنه يستطيع أن يصمد له، وأن يتحداه، وينتصر عليه.

صادق: وكذلك الأمر في أيامنا هذه يا مولانا الشيخ، فالانتفاضة الرائعة منذ ست سنوات في فلسطين التي يحتلّها اليهود، استطاعت أن تبرهن لليهود ولمن يؤازرهم من الدول الكبرى، وهي كلُّها دول صليبيّة صهيونيّة حاقدة على العروبة والإسلام.. أقول: استطاع أبطال المقاومة، أن يبرهنوا للدنيا، أن العربيّ المسلم لا يستسلم مهما كان ضعيفاً، ومهما كانت المؤامرات عليه شديدة.. إنه يدفع دمه في سبيل الحفاظ على إسلامه، وعلى أرضه وعرضه.

صادقة: كنتَ تريد أن تحدّثنا عن لقائك بنابليون يا جدّي.

الشيخ: هذا صحيح.. وأنا في الطريق إلى ذلك اللقاء، فاستعينوا بالصبر على هذه المقدّمات التي جعلتني أكوّن فكرة صحيحة عن نابليون، قبل أن ألقاه.

صادقة: معذرةً يا جدّي.. ﴿وخُلِقَ الإنسان عجولاً﴾.

الشيخ: لا تثريب عليكم لا تثريب..

ثارت القاهرة على نابليون، واحتشدت جموع المسلمين في السادسة صباحاً في عدّة أحياء من القاهرة، وَعَلَتْ أصواتُ السُّخط والاستياء، وأخذ الناقمون يعدّدون أسباب سخطهم وثورتهم، وصاح المؤذّنون من فوق مآذنهم، ينادون نداءات مثيرة: حيَّ على الجهاد، حيَّ على الجهاد.. إلى الجهاد يا مسلمون.. الإسلام في خطر أيّها المسلمون.. أعراضكم في خطر.. بلادكم في خطر.. وهكذا.. فتجمهر الناس ومعهم البنادق

والعصيّ، وأقفلت الدكاكين أبوابها، وبدأت المواجهات في الساعة العاشرة صباحاً، وقُتل من الفرنسيين ومن المسلمين خلقٌ كثير وقتل المجاهدون الجنرال ديبوي قومندان القاهرة، والكولونيل سلكوسكي ياور نابليون، وضُربت القاهرة بالقنابل والمدافع.. آلاف القنابل انهالت على الجامع الأزهر والأحياء المجاورة له، فأحدثتْ دماراً وخراباً.. وهذا كلُّه أعطاني صورة واضحة عن هذا السفّاح نابليون، صبـيّ الثورة الفرنسية.

صادق: الله أكبر.. هذا فظيع.

صادقة: ولكنك لم تحدّثنا عن أسباب ثورة القاهرة يا جدّي.

الشيخ: أسبابها واضحة وضوح الظلام في قلوب الغزاة الفرنسيين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، وعلى الأزهر مقرّ المجاهدين والثائرين.. فهناك المظالم التي جعلت المصريّين يترحمون على المماليك.. مصادرة الأملاك.. هدم المباني والآثار والمساجد وأبواب الحارات والدروب.. القتل والإرهاب.. امتهان المشايخ وقتل طلبة العلم.. اعتقال المجاهد الكبير محمد كريم حاكم الإسكندرية وإعدامه.. الضرائب.. الاعتداء على الأموال والأعراض والحريات والمقدّسات.. إشاعة الفحشاء.. وما إلى ذلك من أسباب تخرج الحليم عن حلمه.

صادق: وهل شارك جيشك في تلك الثورة يا سيِّدي؟

الشيخ: جيش العميان كان يقظاً، وقد طلبت منهم أن يشاركوا الشعب في قتل الجنود الفرنسيين، وقد تمكّنوا من قتل العشرات منهم اغتيالاً.

صادق: كيف؟

الشيخ: كان الأعمى يتظاهر بمظهر الشحّاذ، وكان ينتظر الجنود

السكارى وهم يجوبون الشوارع والأزقة، فيتقدّم الشحاذ منهم، ويطعن واحداً أو أكثر في مقتل من مقاتله، ثم يختفي عن الأنظار. . بعض العميان اتخذوا صفة المطرب، أو البائع المتجوّل، وبعضهم صفة المشعوذ الذي يقرأ الكفَّ أو البخت، وكلّ هذا يتطلب اللمس، لأنهم عميان، وكانوا يصطادون الجنود الفرنسيين على هذه الصور والأشكال، حتى ضجّ الفرنسيّون جميعاً، وأصابهم الذّعر، لأنهم لا يعرفون كيف يوقع المجاهدون بهم، ولا يعرفون الذين يغتالونهم، إلى أن وقع أحد جنودي أسيراً في أيديهم، بعد أن قتل أحد الجنود، وولّى هارباً، فلحق به جنديّ آخر كان حضر فجأة، وتحت التعذيب الوحشيّ، أقرّ ذلك الأعمى الأسير، بما قام به هو وإخوانه من العميان.

صادقة: وكان هذا هو السبب في اللقاء بنابليون يا جدّي؟

الشيخ: أجلْ. . ولكنّي كنت التقيتُه قبل هذه الحادثة المشؤومة التي أودتْ بحياة أكثر من سبع مئة من إخواني العميان.

صادقة: هل قتلهم الفرنسيون؟

الشيخ: ومَنْ غيرُهم؟ أمر نابليون جنوده بأن يتعقّبوا العميان في كلّ بلد، واستطاع بعض إخواني الاختفاء والنجاة، واستطاع بعضهم الدفاع بشرف عن نفسه، واستشهد كثيرون، رحمهم الله رحمة واسعة.

صادق: رحمهم الله جميعاً.

صادقة: هل تحدّثنا عن لقائكم به يا جدّي؟ فقد شوّقتنا لذلك اللقاء. .

الشيخ: في لقائي الأول بنابليون، قبل ثورة القاهرة، وقبل قتل ٧٢٩ مجاهداً أعمى من أتباعي، وقبل أن يعدموا ستين منهم بعد تهذيب شديد، وأمام الناس الآخرين الذين جيء بهم إلى ما أسموه محكمة، وهي مهزلة،

وعذّبوهم عذاباً رهيباً ليعترفوا أمام الآخرين، ليوهنوا عزائم الناس، فلم يعترفوا على زعيم الثورة، وقبل أن يعدموا /٤١٤/ رجلاً وثلاثين امرأة، لأنهم شوهدوا يشتركون مع المجاهدين.

صادقة: الله أكبر أعدموا النساء!

الشيخ: قبل كلّ هذا، طلبني بونابرت، وجلسنا معاً، وقلت له فيما قلت: أنا، يا جنرال، أراك دائماً في منامي، ومعك ثعبان كبير، ودودة دقيقة، أرسلتَهما على نخلة عظيمة، فالتفّ الثعبان حول جذعها، فاضطربت النخلة، وأصابها هلع شديد أنساها كلَّ شيء، وإذا صائحٌ يصيح من السماء: أيتها النخلة، لا تخافي الثعبان، وخافي الدودة.. وكانت الدودة قد زحفتْ حتى بلغتْ أعلى النخلة، وأخذتْ تمتصُّ لبابها، فتدلّت سعفة من النخلة، ثم ارتفعت برأس الثعبان، إلى حيث الدودة، فالتهم الثعبان الدودة، ونجت النخلة.

صادقة: ما هذا المنام يا جدّي؟

الشيخ: وكذلك بونابرت استهول واستغرب هذا المنام، وطلب مني أن أفسّره له، فقلت له: سوف تفسّره لك الأيام.

صادق: وماذا جرى في ذلك اللقاء يا سيّدي؟

الشيخ: حاول أن يضحك عليّ، ويضلّلني عمّا يجري، ويسوّغ لي مجيئه إلى مصر محرّراً، ويسوّغ بعض الإجراءات والجرائم التي قام بها هو وضباطه وجنده.

صادق: وماذا كان ردُّك يا سيّدي؟

الشيخ: كان كلٌّ منا يمكر بالآخر، ويحاول أن يصرفه عن أهدافه الحقيقيّة. ولعلّي استطعتُ أن أبهره بحديثي وتفكيري وذكائي ودهائي، حتى رأيته يعرض عليّ سلطنة مصر.

صادقة: عرض عليك نابليون أن تكون سلطاناً على مصر؟

الشيخ: لماذا تستغربين يا بنتي؟ أم أنّك تستكثرين على هذا الكهل الأعمى أن يكون سلطاناً على مصر؟

صادقة: معاذ الله يا جدّي، والله أنت أحقّ بها من غيرك.

الشيخ (مبتسماً): كذلك كانت تقول لي زوجتي أمّ داود.

صادق: لماذا رفضتَ طلب نابليون هذا يا سيّدي؟

الشيخ: اسمع يا صادق.. من باع نفسه للشيطان، لا يستردّها منه أبداً.

صادق: عفواً يا سيّدي، لم أقصد هذا.. حاشك حاشاك..

الشيخ: إذن تريدني أن أخدعه؟

صادق: نعمْ يا سيدي.

الشيخ: أنت لا تعرف خداع نابليون ومَكْره، إلاّ إذا عرفتَ إبليس ومَكْرَه.

صادقة: إذن.. بماذا أجبْتَ نابليون؟ كيف صرفْتَه عن طلبه وعرْضه؟

الشيخ: عرضتُ عليه أن يأمر أولاً بتشكيل جيش من الشعب المصريّ، فأبـى، وانتهت المقابلة، وكلٌّ منّا قد عَرَفَ دخيلة نفس صاحبه.

صادق: واللقاء الثاني؟

الشيخ: كان بعد ثورة القاهرة، وبعد الدِّماء والدَّمار وقطع الرؤوس.. بعد أن أعدموا المشايخ وهم عراة كما ولدتهم أمهاتهم.

صادقة: لعنة الله على الظالمين.

الشيخ: عرف بونابرت من أكون في تلك الثورة، وأني الذي أمرت عمياني باغتيال الفرنسيين، وكنتُ أعرف هذا في سلام بونابرت ونبرات صوته، ومع ذلك، لم أرهبْه ولم أخفْ منه، لأني نويتُ الشهادة في سبيل الله.

حاول نابليون تسويغ الجرائم التي ارتكبها جنوده، وألقى اللوم على المشايخ الذين أثاروا العامة على الجنود، فتعرّضوا لهم وقتلوا بعضهم، وقال: لولا اعتداء العامّة علينا، ما امتدت أيدي جنودي الشرفاء لقتل أحد.

صادق: وسكتَّ له؟

الشيخ: بل قلت له: اعذرني يا ساري عسكر إذا قلت لك: إن جنودك الذين تتحدث عنهم وعن شرفهم، هم من المشرّدين الذين جمعْتَهم من سكك مرسيليا وطولون المظلمة، ثم منحْتَهم شارات جيش الشرق، لما أبْدَوْه من وحشيّة في مقاومة المصريّين.

ولمّا رأيت بونابرت لا يُجيب، تحمّستُ وقلت:

ــ وحشية جنودك، يا ساري عسكر، هي التي أخمدت الثورات المتتالية عليك في مصر وفي الأقاليم.. جنودك، يا ساري عسكر، لم يكونوا جنوداً شرفاء، بل ذئاباً ضارية في غابة.. فقدوا إحساس الجنديّ بلذة الحرب والنصر، وسيطر عليهم إحساس اللصّ بلذة القَنْص والنَّهْب.. كانوا يشكّلون في كلّ مدينة وحيّ وقرية، عصابة من عصابات اللصوص وقُطّاع الطُّرُق.

صادق: الله أكبر.. الله أكبر..

صادقة: وماذا كان ردّ فعل نابليون على هذه الجرأة النادرة يا جدّي؟

الشيخ: حاول الاعتذار فلم أقبل، وحاول أن يمكر بـي، فعرض عليّ أن نطوي صفحة الماضي الدامي، وأن نبدأ من جديد.

صادقة: وماذا كان ردّك يا جدّي؟

الشيخ: قلت له بحزم:

ـ بونابرت! تذكَّر تأويل الرؤيا التي حدّثتك عنها..

النخلة هي مصر، والثعبان هو جيشك، والدُّودة هي حيلتك بأنك جئتَنا لتحرّرنا، وأنك مسلم وتسعى للنهوض بالمسلمين.. وقد أثْرنا الثعبان (جيشك) حتى التهم الدودة (حيلتك) وغداً سنطرد الثعبان.

صادقة: يا سلام ما أروعك يا جدّي.

الشيخ: فثار بونابرت وصرخ، وثرتُ أنا وصرختُ في وجهه، فتراجع الخبيث، وعاوده مكرُه، فعرض عليّ أن أكون سلطاناً لمصر من جديد، لأصلح ما فسد واضطرب من أحوال.

فكَّرتُ قليلاً ثم قلت له:

ـ رضيت.. فهاتِ يدك.

وتحرك الشيخ سليمان في مجلسه ثم هبّ واقفاً وصاح:

مدَّ يَدك يا جنرال.

فمدّ بونابرت يده، فأمسكتُها بيميني، ثم صفعتُه بشمالي صفعة أطارت قلنسوته وصوابه، فصرخ: اقتلوه، ورأيتُني محمولاً على سحابة من عبير، تحفُّ بـي أرواح إخواني الشهداء وهم يهلّلون ويكبّرون.

● ● ●

المصادر والمراجع

١ ـ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن الجبرتي.

٢ ـ رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: محمود محمد شاكر.

٣ ـ ودخلت الخيل الأزهر: محمد جلال كشك.

٤ ـ الدودة والثعبان (مسرحية): علي أحمد باكثير.

٥ ـ علي بك الكبير أو دولة المماليك: أحمد شوقي.

٦ ـ معارك العرب ضدّ الغزاة: د. محمد عمارة.

٧ ـ دراسات في أدب باكثير: عبد الله الطنطاوي.

• • •

